بكر بن النطّاح
لغة اللص الفاتك.. لغة المدّاح العاشق

الدكتور عبد المطلب محمود
سلمان
مدرّس / قسم اللغة العربية
كليّـة التربية / جامعة المثنّـى

مقدّمة:

هذا شاعر يستحق الوقوف عنده ودراسته، لأسباب عدّة ربما تكون سيرة حياته - ابتداءً - أول هذه الأسباب.

فلقد عرف هذا الشاعر بكونه واحداً من اللصوص الفتّاك الذين كانوا يقطعون الطريق ما بين البصرة واليمامة، وقد عاش في زمن الخلفاء العبّاسيين: هارون الرشيد وولديه الأمين والمأمون، حتى إذا ما أقصر عن اللصوصية والفتك وعاش في كنف عدد من الأمراء، تبدلت أحواله وصار عاشقاً متيّماً، مما انعكس ذلك أول ما انعكس على لغة أشعاره، ممائلاً في هذا الأمر الشاعر الذي جيء به من البادية في عهد الخليفة المتوكل – أي في سنين لاحقة – وشُهر أولاً ببيته الذائع الصيت :

أنتَ كالكلب في حفاظكَ للودّ.. وكالتيس في قراع الخطوبِ

الذي أثار حفيظة ندمان الخليفة وسيّافه، قبل أن يُشهر لاحقاً بمستهل قصيدته التي ألقاها في حضرة الخليفة نفسه، الذي قال فيه :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ليضع اسمه وأشعاره على كل شفة ولسان، بينما ظلّ شاعرنا (بكر بن النطّاح) هذا شبه مجهول، ولم يكن له من نصيب الشهرة سوى أن يُعدّ من بين الشعراء المُقلّين، الذين تأخر أوان التعريف بهم وجمع أشعارهم، حتى

لكاد يكون من المنسيين، على الرغم من القصائد والمقطعات المدهشة التي وصلت إلينا منه، لاسيما في عدد من أغراض الشعر المعروفة ، لاسيما : المديح والنسيب والفخر والرثاء، وقد كان له فيها نصيب ملحوظ من التميز والإبداع، يدفعان إلى دراسة ظاهرة مهمة من ظواهر العطاء الشعري، ونعني بها ظاهرة التحوّل البارز في أهم مكوّنات الشعر : اللغة، بمفرداتها وتراكيبها وبالصور التي تكوّنت عبرها، عند انتقال الشاعر من حياة اللصوصية والفتك والتشرد إلى حياة الدعة والاستقرار فالانغمار في الحب، لأنها ظاهرة تسترعي الانتباه وتستدعي المعاينة المدققة، للكشف عن مدى شاعرية الشاعر وقدرته على عكس تحوّلاته الحياتية في أشعاره، التي سنقصر بحثنا على لغته في أغراضه الثلاثة دون الرثاء.
ويقتضي واجب البحث التوجه ببالغ العرفان إلى كل من المرحوم عبد المعين الملّوحي، الباحث السوري المتعدد الاهتمامات، الذي جمع شعر بكر بن النطاح وحققه ونشره ضمن موسوعته عن الشعراء اللصوص وأخبارهم، والأستاذ الدكتور حاتم الضامن – أمدّ الله في عمره – الذي فعل الشيء نفسه في كتابه (عشرة شعراء مقلّون)، فقد فتحا أمام هذا البحث الأبواب واسعة للإفادة من جهديهما وصولا إلى الغاية المتوخّاة.. ومن الله العون والسداد.

شيء من حياة الشاعر :

هو (أبو وائل) بكر بن النطّاح الحنفي (من بني حنيفة) من أهل اليمامة ، وقيل انه عجلي من بني سعد بن عجل (١) ، وإن كان عجل بن لجيم وحنيفة أخوين (٢). عاش في زمن الخلفاء العبّاسيين : هارون الرشيد وولديه الأمين والمأمون، وهو بصري نزل بغداد وكان مجهول تاريخ الميلاد وممن اختلف على تاريخ وفاته كذلك، فضلا عن إغفال الرواة والمؤرّخين لحياة أسرته، واستدلالهم على حياته من أشعاره.
يقول صاحب (الأغاني) إن بكراً هذا كان " صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر عن ذلك (٣). وبعد صفحات قليلة يقول إنه كان صديقاً للأمير معقل بن عيسى الذي ينسب إليه بناء المعقل في البصرة ، ويضيف قائلا: " وكان بكر فاتكاً صعلوكا، فكان لا يزال قد أحدث حادثة في عمل أبي دلف أو جنى جناية فيهمُّ به، فيقوم دونه معقل حتى يتخلّصه ..." (٤) . وبعد موت معقل، تحوّلت حياة الشاعر مما كانت عليه إلى حياة القصور لدى الأمراء

وحاشيتهم وجواريهم وقيانهم، وما عكسه ذلك التحوُل على شعره.
ولهذا التحوُل حكاية لا بأس من إيراد بعض تفاصيلها لفهم حال الشاعر. إذ يقول ابن المعتز في طبقاته :
"لمّا ورد بكر بن النطاح على الأمير أبي دلف العجلي [قاسم بن عيسى] ومدحه دعا به وقال : أنشدني . فأنشده حتى بلغ الموضع الذي يستمنحه فيه ويسأله. قال (يعني الأمير) : فأين ما قلت :

ومَن يفتقرْ منّا يعشْ بحسامِه ومن يفتقرْ من سائر الناس يَسألِ

فخجل بكر وأطرق مليّاً ثم قال : أيها الأمير لو كان تحتي فرس من خيلك وفي يدي قناة من رماحك وتقلّدت سيفاً من سيوفك لما قمت هذا المقام. قال فدعا له بجميع ما ذكره وهميان فيه خمسمائة دينار، ثم قال : امض فصدِّق قولك بفعلك " (٥).
أما (الأغاني) فأورد رواية أكثر تفصيلا تقول إن بكراً هذا أنشد العجليّ قصيدته التي يقول فيها :

هنيئا لإخواني ببغداد عيدُهم وعيدي بحلوانٍ قراعُ الكتائبِ

فقال له : إنك لتكثر الوصف لنفسك بالشجاعة وما رأيت لذلك عندك أثراً قطّ ولا فيك. فقال له بكر : أيها الأمير وأي غناء يكون عند الرجل الحاسر الأعزل؟ فقال : أعطوه فرساً وسيفاً وترساً ودرعاً ورمحا. فأعطوه ذلك أجمع، فأخذه وركب الفرس وخرج على وجهه. فلقيه مالٌ لأبي دلف يحُمل من بعض ضياعه فأخذه، فخرج جماعة من غلمان أبي دلف فمانعوه عنه فجرحهم جميعا وقطعهم فانهزموا، وسار بالمال فلم ينزل إلا على عشرين فرسخا. فلمّا اتّصل خبره بأبي دلف قال : نحن جنَينا على أنفسنا وقد كنّا أغنياء عن إهاجة أبي وائل. ثم كتب إليه بالأمان وسوّغه المال وكتب له : صرْ إلينا فلا ذنب لك لأنّا نحن كنّا سبب فعلك بتحريكنا إيّاك وتحريضك. فرجع ولم يزل معه يمتدحه حتى مات (٦).
وقد أشار الأستاذ الملّوحي رحمه الله بعد روايته الحادثة بروايتيها آنفتي الذكر، إلى أن بكراً - في ظنّه - كفَ بعدها عن اللصوصية وعاش ببغداد وعاشَر الشعراء والأمراء (٧).
ويذكر صاحب (الأغاني) إن بكراً كان يأتي أبا دلف في كل سنة فيقول له: إلى جنب أرضي أرض تباع وليس يحضرني ثمنها، فيأمر له بخمسة آلاف

درهم ويعطيه ألفا لنفقته. فجاءه في بعض السنين فقال له مثل ذلك، فقال أبو دلف : ما تفنى هذه الأرضون التي إلى جانب ضيعتك ؟ فغضب بكر وانصرف عنه، لكن العلاقة الطيبة سرعان ما كانت تعود بين الاثنين(٨).

ومن الأمراء الذين عاش في كنفهم، يذكر الرواة كلاً من : يزيد بن مزيد الشيباني، ومعقل بن عيسى، وقرّة بن محرز الحنفي أمير كرمان، ومالك بن علي الخزاعي الذي كان يتولّى طريق خراسان وصار إليه – الشاعر – بعد وفاة أبي دلف. وقد مدحه فلم يُرضِه ثوابه فخرج من عنده وقال يهجوه:

فليت جَدا مالكٍ كله وما يُرتجى منه من مَطلبِ
أصبتُ بأضعاف أضعافِه ولم أنتجعْهُ و لم أرغبِ

وقد كتبها في رقعة وبعث بها إليه، فلما قرأها وجّه جماعة من أصحابه في طلبه وقال لهم : الويل لكم إن فاتكم بكر بن النطاح ولابدّ أن تنكفئوا على أثره ولو صار إلى الجبل. فلحقوه فردّوه إليه فلما دخل داره ونظر إليه قام فتلقّاه وقال : يا أخي عجِلتَ علينا وما كنّا نقتصر بك على ما سلف وإنما بعثنا إليك نفقة وعوّلنا بكَ على ما يتلوها. واعتذر كل منهما إلى صاحبه، ثم أعطاه الخزاعي حتى أرضاه فامتدحه ... الخ (٩).

هنا بدأ التحوُّل الأكبر في حياة الشاعر، فقد صار من حاشية الأمراء، وكان لابدّ من أن يستتبع ذلك تحوُّل موازٍ في روحه وقلبه، ولنقُل في مشاعره وتكوينه الاجتماعي والنفسي، إذ سرعان ما أحبَ جاريتين : الأولى الأحبّ إلى نفسه واسمها (درّة) وهي من جواري القيان وكانت لبعض الهاشميين، وقد أحبّته بدورها وحظيت بأكثر غزَله، وكان يجتمع معها في منزل أحد الجند من أصحاب أبي دلف يقال له (فرز) وقد سعى به إلى مولاها وأعلمه أنه قد أفسدها وواطأها على أن تهرب معه إلى الجبل ، فمنعه مولاها الهاشمي من لقائها وحجبها عنه إلى أن خرج إلى (الكرج) مع أبي دلف .

أما الجارية الثانية فتدعى (رامشنة) وكانت لبعض الحنفيين ، ولم يقتصر على حب النساء بل أحبّ - على جاري عادة أكثر شعراء عصره - أحد الغلمان وجنّ به حبّا ، وحقّ له أن يتشبّه بغيره في حياته الجديدة الوادعة المترفة البعيدة عن (قراع الكتائب) واللصوصية والفتك، وإن كان الحب ومتطلباته قد دفعه إلى الإكثار من المديح، وكانت نوازع اللصوصية – مثلما سنرى – قد طبعت مدائحه بطابع خاص، حقق له التميّز والفرادة فيما وصلنا من أشعاره.

بعد هذا يذكر الأصفهاني إن بكراً كان شجاعاً بطلاً وكان وفيّا ، إذ رثى مالك بن علي الخزاعي " بعدّة قصائد من غرر شعره وعيونه " (١٠).

مختار من أشعاره في الفخر واللصوصية والفتك :

ستحاول هذه الدراسة أن تتناول ابتداءً عدداً من مقطعاته وقصائده التي قالها في أثناء تأبُّده ولصوصيته، للوقوف على أبرز مفرداته وتراكيبه اللغوية فيها، وما يمكن أن نتبيّنه من مداليلها القريبة والبعيدة التي تكتنفها، فنقرأ له من مطوّلته الوحيدة التي وصلت إلينا قوله مفتخراً بنفسه وبقبيلته وغيرها من القبائل المشهود لها بالمواقف و"الأيام" القتالية، الأبيات (١٧و ٢٧و ٣١) على سبيل المثال :

ألستُ الخليعَ الجامحَ الرأس والذي   يرُدُّ الصِّبا عَوداً على البدَآتِ

ثم قوله :

وما الفتكُ إلاّ في ربيعةَ والغنى   وذبٌّ عن الأحسابِ والحُرُماتِ

ثم قوله :

إذا هلكَ البكريُّ كان تراثهُ   سنانٌ وسيفٌ قاضبُ الشَّفَراتِ(١١)

ونقرأ له في بيت منفرد مادحاً أبا دلف العجلي :

فكفكُّكَ قوسٌ والندى وتَرٌ لها   وسهمُكَ فيه اليُسرُ فارم به عُمري(١٢)

كما نقرأ له مقطعته التي كانت سبب تعرُّف الأمير العَجلي عليه، أول عهدهما باللقاء والصحبة :

ومَن يفتقرْ منّا يعِشْ بحُسامِهِ   ومَن يفتقرْ من سائر الناس يسألِ
ونحنُ وُصِفنا دون كلِّ قبيلةٍ   بشدَّةِ بأسٍ في الكتابِ المُنَزلِ
و إنّا لنلهو بالسيوفِ كما لهَت   عروسٌ بعِقْدٍ أو سِخابِ قَرنفُلِ(١٣)

ونقرأ له بيتين يشكّلان إحدى مقطعاته :

وترى السباعَ من الجوا   رحِ فوق عسكرنا جوانحْ
ثقةً بأنّا لانـزا   ل نَميرُ ساغبَها الذبائح(١٤)

وأخيراً قوله في مقطعة من بيتين أيضا :

إذا شئتُ غنّتني ببغدادَ قينةٌ   وإن شئتُ غنّاني الحَمامُ المطوّقُ
لباسي حسامٌ أو إزارٌ مُعصفرٌ   ودرعٌ حديدٌ أو قميصٌ مُخَلّقُ(١٥)

هذه الأبيات – إذاً – تفصح عن فخر مكتنز بالتبجُّح وتبيّن لغتها أن بكراً هذا

شديد التعلق بقبيلته وبماضيها ذي الوقائع القتالية العنيفة، وتبدو مفردات : الفتك والخلع وجموح الرأس والذبّ عن الأحساب، ثم الأسنّة والسيوف وشدّة البأس..إلى آخر ذلك، هي الغالبة على تراكيب لغة هذه الأبيات، حتى لقد حدد تراث الإنسان البكري غبّ هلاكه بأداتيْ القتال وحدهما : السنان والسيف القاطع الحد، لا بل يفصح في بيت المقطعة المنفرد بحدّ ذاته عن بداية علاقته بصاحبه الأمير العجلي، إذ تعبّر مفرداته التي جاءت بصيغة المديح عن تمسُّك قوي بلغة القتل حتى في موضع استثارة الممدوح لنَيل مكافأته، وقد راح الشاعر يُشبّه كفّ الأمير المذكور بالقوس وعطاءه بوترها ويدعوه أن يرمي عُمره بسهم اليُسر الذي يحمله، بدلاً من أن يستعمل مفردات مديح أرقّ تأثيراً مثلما سيفعل في القصائد والمقطعات التي قالها بعدئذ في معرض مدح هذا الأمير وسواه من أصدقائه الجدد في حواضر الدولة العباسية.

إنها لغة قاتل متمرّس، هذه التي تعبّر عنها مقطعته اللامية، يفخر بوراثته لتاريخ مقاتلين لم يعرفوا إلا ميادين القتال، ولم يعيشوا إلا رفقة السلاح، ولم يغتنوا إلا من أسلاب خصومهم، لا بل يفخر أكثر من ذلك بكونه من أبناء / أو وريث قبيلة تلهو بالسيوف لهوَ العروس بعقد اللؤلؤ أو الفضة أو العقد المصنوع من زهر القرنفل، فضلا عن ورود ذكر قبيلته هذه في كتاب الله المُنزل (القرآن الكريم)(١٦) .

مختار من أشعاره في ممدوحيه :

يمكننا الآن أن نتوقف عند أمثلة من أشعار هذا الشاعر التي قالها في غرض المدح، بعد أن استقرّ به المقام في عدد من الحواضر العربية والإسلامية في البصرة وكرمان وخراسان وبغداد والكرج وغيرها، لنتبيّن من خلالها طبيعة التحوّل الذي طرأ على لغته فيها، انعكاساً للظروف الجديدة التي ارتبط بها والأحوال المعيشية التي رافقتها. فعلى سبيل المثال، مدح الشاعر أحد ممدوحيه فقال :

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلبٌ إليك، من الذي نتطلّبُ
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجدْ أحداً سواك إلى المكارم يُنسب
فاصبرْ لعادتِك التي عوّدتنا أو لا فأرشِدنا إلى مَنْ نذهب (١٧)

ففي هذه المقطعة يلجأ الشاعر إلى أسلوب لم نقرأ له مثيلاً في أشعار المديح

التي سبقت أو التي تلت، إذ يضع الشاعر مسؤولية إلحاح طالبي العطاء على الممدوح نفسه، فهو الذي "عوّد" سائليه على العطاء الجزيل، مما جعلهم – والشاعر في مقدمتهم – يتوجهون بسؤال عجيب إلى الممدوح بأن يرشدهم إلى شخص جزيل العطاء يماثله ليتوجّهوا إليه بدلاً منه إذا ما فاتهم عطاؤه، لأنهم طوّفوا في طول البلاد وعرضها فلم يجدوا له نظيراً في عطائه وكرم أخلاقه، وهو أسلوب فيه من المكر الخبيث ومن الذكاء البالغ وحُسن التخلّص، من شأنه استفزاز مشاعر الممدوح وإحراجه ويدفعه إلى إجزال المزيد من العطاء، إذ لا يعقل لمن يسمع مثل هذا المديح الملتوي الأسلوب أن بقول شيئاً، مما يجعلنا نقول باطمئنان إن بكراً هذا أفاد كثيراً من وسائله القديمة إبّان لصوصيته في الاحتيال على ضحاياه وإيقاعهم في شباكه، سوى أنه استبدل باللغة هنا ما كان يستعمله من أدوات قتل أيّام ذاك.

وفي مقطعة أخرى مدح فيها مالكا الخزاعي، قرن فيها المديح بالغزل بشكل فريد، فقال :

عرضتُ عليها ما أرادت من المنى لترضى، فقالت: قم فجئني بكوكب
فقلتُ لها : هذا التعنّت كله كمن يتشهّى لحمَ عنقاء مُغرب
سلي كلَ أمر يستقيم طلابُه ولا تذهبي يا (درُّ) بي كلَ مذهب
فلو أنني أصبحت في جود (مالك) وعزّتِه ، ما نال ذلك مطلبي
فتىً شقِيتْ أموالُه بهباتِه كما شقيتْ قيس بأرماح تغلب [١٨]

نجد الشاعر قد أفاد أيضاً من ذكاء ومكر اللص في داخله في مخاطبة ممدوحه، فهو يبدأُه بعرض حاله مع محبوبته المشاكسة التي لا تقلّ عنه خبثاً ومكراً، وما تتمنّاه عليه وتشترطه من شروط تعجيزية تبلغ حدود المستحيل، من أجل إرضائها ونَيل مآربه منها، لينتهي إلى مقصده الحقيقي باستفزاز الممدوح كذلك، بقوله "لها" مجازاً بلا شك، بأنه حتى لو كان بمستوى قدرات الممدوح المالية وإمكاناته وموقعه لما تمكن من تلبية مطالبها، ومن ثم فالرسالة التي تضمنتها عبارة (لها) المنطوية تحت جملة: "سلي كلّ أمر..."، تضمنت أغرب تورية لاستجلاب عطاء الممدوح، لاسيما إذ قرنها الشاعر ببيت المديح المباشر (الأخير) : "فتىً شقيتْ..."، وهي – المقطعة – تلتقي من حيث لغتها باللغة البسيطة التي آل إليها شعر ابن النطّاح، المركبّة من عبارات ملتوية اقترنت فيها روح العاشق بروح اللص الفاتك، فأنجبت مدحة كفيلة بـ "اقتناص" عطاء جزيل عبر حبائل من لغة بدلاً من حبائل

اللص العاديّة المعروفة، فضلا عن مفردات وتراكيب استعملها الشاعر بتفرّد، منها قوله : (هذا التعنّت كله..) إذ لم يسبقه إلى استعمال مفردة (التعنّت) أحد، و(كمن يتشهّى لحم عنقاء مغرب) التي تضمنت مفردة (يتشهّى) وجملة (لحم عنقاء مغرب) غير المسبوقتين من أحد قبله، على سبيل المثال لا الحصر.

وقال في مقطعة أخرى يمدح مالكا الخزاعي، وقيل مالكاً بن طوق وهْماً من راويتها (ابن هفّان) :

أقول لمرتادٍ ندى غير مالكٍ كفى بذل هذا الخلق بعض عِداتِهِ
فتىً جاد بالأموال في كل جانبٍ و أنهبَها في عَوْدِه و بداتِه
فلو خَذلتْ أموالُه بذلَ كفِّه لقاسمَ من يرجوهُ شطرَ حياته
ولو لم يجد في العمر قسمة ماله و جاز له الإعطاء من حسناته
لجاد بها من غير كفر بربِّه وشاركهم في صومِه وصلاتِه[١٩]

ويبدو من الواضح هنا أن الشاعر في هذه المقطعة لعب هذه المرة على الوازع الديني لدى الممدوح، فاستعمل لغة مفرداتها ذات إشارات دينية في البيتين الأخيرين منها، بعد أن ضرب في أبياتها الثلاثة الأولى على "وتر" الكرم والجود والندى...إلى آخره، وصنع من هذه الأبيات ما يشبه "الفخ" أمام الممدوح قبل أن يحشره في زاوية أضيق قائمة على مفردات : الحسنات ، والكفر بالرب، والصوم والصلاة، مقرّراً لممدوحه حالة من الصلاح والتقوى وشدّة مخافة الله تعالى، لا يملك الفكاك منها بأي حال من الأحوال ولا الخلاص من آثامها إلا بمنح الراغبين في عطائه "كفّارة" ما قد يبلغ حدود الكفر في شخصيته، مما قد يتسبب في تشويه سمعته الدينية والدنيوية على السواء!

ومما قاله ممتدحا أبا دلف العجلي :

أذكى وأوقدَ للعداوة و القِرى نارَين : نارَ وغىً و نارَ زنادِ
ومقسّم بين القواضب والقنا غضبَ الملوك ونيّة العُبّاد
فإذا أبو دلف أمدَّ بذكره جيشاً كفاهُ مؤونة الإمداد[٢٠]

هنا نجد الشاعر وقد حشر ممدوحه داخل أحلى ما يحب أي قائد ويتمناه، فهو قد أذكى وأوقد نارَين في آن، إحداهما للقِرى (كرماً منه)، والأخرى للوغى (شجاعة منه)، وهو في حالَتين نفسيتين متوازيتين : حالة الملك الغاضب للحق ومن أجل الحق، وحالة العابد الورع التقي، ومن بعد هذه "المصيدة"

المحبوكة بمنتهى المكر يضع الشاعر بيت مقصده الرئيس: الممدوح وقد بلغ من شدة كرمه وعطائه أنه يمكنه أن يُجهّز – في سبيل الحق وحقوق الله – جيشاً من المقاتلين بعدّته وعديده، ومن ثمة فإن أي عطاء يجود به على الشاعر لن يكون ذا بال، في نهاية الأمر!!

ولنقرأ له وهو يقول فيه أيضا :

له راحة لو أنّ معشـارَ جـودِها على البَرّ كان البرِّ أندى من البحرِ
و لو أنّ خلقَ الله في جسم فارس وبـارزه ، كان الخلـيّ من العمر
أبا دلـف بوركت في كل بلدة كما بوركتْ في شهرها ليلة القدر [٢١]

فلا نجد سياقات لغته هنا تختلف كثيراً عمّا سبقها، فممدوح الشاعر في هذه المقطعة، شأن سابقتها، وهو (أبو دلف العجلي) مبارك كليلة القدر التي باركها الله تعالى في كتابه العزيز، وإذا أخذنا بالحسبان البيت الذي عدَّه الأستاذ الدكتور حاتم الضامن مستهلاً لهذه المقطعة، وهو :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

لاكتملت لدينا دائرة من شأنها أن تضيق على الممدوح شيئاً فشيئا، تبدأ من مفردتي (الهمم – الهمّة) العظيمة جدا اللتين تفيدان معنى واحداً متوازياً في مواضع القتال وفي مواقف العطاء والجود، وتنتهي بـ (ليلة القدر) التي لها ما لها من قدسيّة وتقدير لدى الخالق العظيم ولدى خلقه المؤمنين, ومن ثمة فعليه أن يجزل في العطاء لموقفه الشجاع في الحرب ولموقفه الديني والأخلاقي في الحياة وتجاه خالقه!

ثم نقرأ له وقد ذكره في بيتين مادحاً أيضا فقال :

نادى نداكَ بأن يأتوا إذا أمِروا من يُدعَ فاز فأصغى كلُ مستمع
زوروا الأميرَ وبيتِ الله تنتفعوا فاختار وجهُك فينا كلُ منتفـع[٢٢]

لنجد الشاعر قد قرن نداء "ندى الممدوح" بدعوة الله تعالى الناس إلى حجّ بيته الحرام في قوله (وأذّن في الناس بالحجّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كل فجّ عميق* ليشهدوا منافعَ لهم...)(*)، ولينتهي إلى تقرير اختيار الناس وجه الممدوح للانتفاع، مثلما يختار الحجيجُ البيتَ الحرام لهذه الغاية، وهذه مغالاة لا تخلو من لؤم مقصد ومكر واضح، إذ لابد من أن تضطر الممدوح إلى بذل عطاء مضاعف خشيةً من الله تعالى أوّلا، فهو سيعطي وفي ذهنه أن عطاءه من فضل الله عليه، قبل أن يكون من فضله هو المخلوق.

وأخيراً، مما يختار له كلمته التي يقول فيها :

كريـمٌ إذا ما جئتَ للخير طالباً حباك بما تحوي عليه أناملـُهُ
ولو لم يكن في كفِّه غير روحه لجاد بها ، فليتّق الله سائلــه
وما بُعثت في الناس كلُ فضيلة من المجد إلاّ مجدُه وفضائلـه (٢٣)

ولا يختلف موقف الشاعر في هذه المقطعة عن موقفه في سابقاتها، فهو يأتي ممدوحه من مدخل الضرب على وتر الوازع الديني أيضا، عبر لغة محمّلة بمفردات: الكريم، والخير، والروح، وتقوى الله، والفضيلة، والمجد، التي تؤول كلها إلى الممدوح وتنتمي إليه وحده، بحيث لا يترك لممدوحه فرصة الإفلات من حبائل عبارات ومفردات بالغة الدقة من حيث الاختيار الذكي الماكر، الذي كوّنته روح اللص الفاتك السابق (بكر بن النطاح) وليس الشاعر المدّاح، مع ملاحظة أن بيت المقطعة الثاني مما تنازع عليه عدد من الشعراء منهم : زياد الأعجم وعبد الله بن الزَّبير الأسدي وأبو تمّام(٢٤) .

مختار من أشعاره في النسيب :

يمكن الآن الوقوف على قصائد الشاعر ومقطعاته في الغزل، إذ نقف أولا على ما قاله في الجارية (درّة)، ومن ذلك ما وصل إلينا من قصيدته التي قال فيها :

هــل يُبتلى أحدٌ بمثل بليّتــي أم ليس لي في العالمين ضريبُ ؟
قالـت عنانُ وأبصـرتني شاحباً يا بكرُ مالكَ قد علاكَ شحـوبُ ؟
فأجبتـُها: يا أختُ لم يلـقَ الذي لاقيَـتُ إلاّ المُبتلـى أيّـوب
قد كنـتُ أسمعُ بالهوى فأظنـُّه شيئـاً يلـذُّ لأهلِـه و يطيـب
حتى ابتـُليتُ بحلـوهِ و بمُـرِّهِ فالحلـو منـه للقلـوب مُـذيب
والمرُ يعجز منطقي عن وصفِه للمُـرِّ وصفٌ يا عنانُ عجيـب
فأنـا الشقـيُّ بحلـوهِ و بمُره وأنـا المُعنّى الهائـمُ المكـروب
يا درُّ حالفَـكِ الجمالُ فما له في وجـهِ إنسان سواكِ نصيبُ
كلُ الوجوه تشابهتْ ، وبهرتِـها حُسناً ، فوجهُك في الوجوه غريب
والشمسُ يغرب في الحجاب ضياؤها عنّا ويُشرقُ وجهُك المحجوبُ (٢٥)

ولابد من القول هنا أن لغة الشاعر قد تحوّلت تحوّلاً واضحاً في مفرداتها وعباراتها، فلا سيوف ولا أسنّة ولا رماحاً وميادين قتال، مثلما كانت تزخر به أشعاره في الفخر بنفسه فاتكاً لصّاً وبقبيلته وما أورثته من أمجادها، ولا فضائل ومكارم وتقوى وندى كفّ وقسمة أموال...إلى غير هذا من المفردات والتراكيب اللغوية التي "أحاط" بها ممدوحيه و "حاصرهم" في نطاق

حبائلها لينال عطاءهم عبرها، بل هي لغة إنسان مُغرم متدلّه شاكٍ باكٍ، شأنه في هذا شأن أشهر العاشقين الذين عرفهم تاريخنا الأدبي العربي والتاريخ الإنساني، إذ انطلق شاعرنا فيها من سؤال يخصّه وحده ليردفه بحوار مع (عنان) التي ربما كانت جارية قريبة منه ومن معشوقته (درّة)، ضمّنه مفردات الحب والهوى وعبارات الشوق والعشق والابتلاء بهما حدّ الشقاء، لينتهي بمخاطبة الحبيبة المعشوقة نفسها بما جعلها "حليفة الجمال" الذي لا تنازعها فيه أية فتاة، لا بل "أي إنسان" في العالم، ثم بما تفوق الشمس ضياءً لأنها – الحبيبة – تضيء طوال الليل مثلها في النهار.

وما من شك في أن بساطة اللغة وما حملته من مبالغات الشاعر عبرها، سواء في بث لوعاته وشكواه من الحب ومن الحبيبة، أم في "إغراء" الحبيبة بهذا الوصف المبالَغ به لجمالها الخارجي تحديداً، إنما يؤكد كذلك مقدرة الشاعر على الإفادة من روح اللص الكامنة في أعماقه لوضع "فخاخ" دقيقة وحبائل متينة أمام الحبيبة ومن حولها، من شأنها أن تغريها بالوقوع في أحضانه، وهو ما حصل – مثلما تشير إلى ذلك المقطعة التالية وبعض تفاصيل سيرته مع هذه الحبيبة – إذ نجده يقول فيها أيضا وقد خرج مع أبي دلف إلى أصبهان :

يا ظبية السِّيــب التي أحببتها	ومنحتها لُطفي ولينَ جنـاحي
عينـاي باكيتـان بعدكِ للـّذي	أودعتِ قلبي من ندوب جـراح
سقيا لأحمـدَ من أخ ولقاسـم	فقدا غـُدُوي لاهيـاً و رواحي
وتـرددّي من بيـت فرز آمنـاً	من قـُرب كلِ مُخالفٍ ومُلاحي
أيّام تغبطـُني الملوكُ ولا أرى	أحداً لـه كتدلـّـلي و مـراحي
تصف القيانُ إذا خلَونَ مجالسي	ويصفن للشـَّربِ الكرام سماحي(٢٦)

فها هو يصف هنا حاله وقد فارق الحبيبة، مشيراً ضمناً إلى لهوه معها وعبثه بها في خلال تردده على "بيت فرز" ، أحد أصدقائه من الجند أصحاب أبي دلف، الذي أخبرتنا مصادره أنه البيت الذي كان يجتمع فيه مع (درّة) هذه، وقد سعى (فرز) هذا به إلى مولاها "وأعلمه أنه قد أفسدها وواطأها على أن تهرب معه إلى الجبل، فمنعه مولاها الهاشمي من لقائها وحجبها عنه إلى أن خرج إلى (الكرج) مع أبي دلف"، وإن أبدى حزناً لفراقها ولوعة قلب على ما كان وما انتهى إليه أمره.

إنه هنا يخبرنا ببساطة لغته وسهولة مفرداتها وتراكيبها التي تكاد تكون غاية

في العاديّة، بتفاصيل تلك العلاقة بالحبيبة ومن حولها ليتحدد قاموس مفرداته ههنا بـ : الحب والبكاء العين والقلب الحامل لندوب جراح الفراق واللهو والغبطة والتدلل والمراح، ثم القيان والشَّرب وسماحة روحه ومجالسه العامرة – ولا شك – بأطايب المآكل والمشارب وما يستتبعها من أمور معروفة، لنجده بعد ذلك شاكياً طول الصدود الذي واجهه من الحبيبة، على الرغم منها أم بغير إرغام حتى، فهو يخبرنا في مقطعته التالية بهذا الذي آل إليه أمره، فيقول في درّة أيضا :

أهلُ دار بين الرصافة والجسر أطالوا غيظي بطول الصدودِ
عذَبوني ببُعْدهم وابتلَوا قلبي بحزنَين : طارف وتليد
ما تهُبُّ الشمالُ إلاّ تنفسّتُ وقال الفؤادُ للعين : جودي
لّ صبري عنهم ولم يرحموني فتحيّرتُ كالطريد الشريد قـ
وكلتني الأيّـامُ فيكِ إلى نفسي فأعييْتُ وانتهى مجهودي (٢٧)

وهي مقطعة حملت من بساطة اللغة ومفردات قاموس الفراق واللوعة منه ما قلل من صبره وجعله ينشد الرحمة التي حُرم منها، ويبدي حيرة " الطريد الشريد" التي سبق أن عرفها أيام تأبُّده ما بين البصرة واليمامة لصّاً فاتكا، لينتقل بنا في مقطعة تالية إلى صوَر رائعة على درجة بلغت الغاية من الشفـّافية وبساطة التراكيب اللغوية، إذ قال :

بعدتِ عنّي فتغيّرت لي و ليس لي عندَكِ تغييـرُ
فجدّدي ما رثَّ مِن وصلِنا وكلُ ذنبٍ لكِ مغفـورُ
أطيِّب النفسَ بكتمان ما سارت به من غدركِ العِير
وعدُكِ يا سيّدتي غرّني منك ومَن يعشق مغرور
يُحزنني عِلمي بنفسي إذا قال خليلي : أنتَ مهجور
يا ليت مَن زيّن هذا لها جارت لنا فيه المقادير
ساقي الندامى سقّها صاحبي فإننـي ويحَكَ معـذورُ
أ أشربُ الخمرَ على هجرها؟ إنّي إذن بالهجر مسرور (٢٨)

وهناك مقطعات أربعة أخرى يشكو فيها لواعجه بسبب عشقه لهذه الجارية تتضمّن الكثير من المعاني والصور المماثلة، استوقفتنا منها هذه المقطعة التي ذكر فيها حبيبته (درّة) وإنْ لم يُسمّها، لما تضمنته من مفردات وتراكيب لغوية فريدة :

غضِب الحبيبُ عليّ من حُبّي له نفسي الفداءُ لمذنبٍ غضبانِ

ما لي بما ذكر الرسولُ يدان بل إنْ تمّ رأيُكِ ذا خلعتُ بناني
يا مَن يتوقُ إلى حبيبٍ مُذنبٍ طاوعتَه فجزاكَ بالعصيانِ
هلاّ انتحرتَ فكنتَ أوّلَ هالكٍ إنْ لم يكنْ لكَ بالصدودِ يدان
كُنّا وكنتُم كالبَنان وكفّه فالكفُّ مفردةٌ بغير بنانِ
خُلِقَ السرورُ لمعشرٍ خُلِقوا له وخُلقتُ للعبَراتِ والأحزانِ!(٢٩)

فمن الواضح إن الشاعر فيها يعبّر فيها عن أقسى ما بلغه من أحواله في عشقه لتلك الجارية، حتى لينفرد في ذكر تركيب لغوي لم يسبقه إليه أحد، يتمثل في قوله : (هلاّ انتحرتَ فكنتَ أوّل هالك...)، الذي لا نظن أن أحداً من الشعراء من مجايليه أو من التالين له حتى اليوم، قد استعمله لا بل استعمل مفردة (الانتحار) حتى، بما يؤكد مبلغ يأسه من الحبيبة وهو من هو لصوصيةً وفتكاً، قبل تحوّله الحياتي، فضلا عن استعماله هذا التركيب اللغوي التقريري، لكنْ المتفرّد ، في قوله : (خُلق السرور لمعشر...).
أمّا في الجارية الأخرى (رامشنة) فقد قال مقطعتين فقط، أو هذا ما وصل إلى جامعَي أشعاره الفاضلين (الملوّحي) و(الضامن)، قال في إحداهما :
حيّتكَ بالرامشن رامشنة أحسن من رامشنة الآس
جارية لم يُقتسم بعضها ولم تبِتْ في بيت نخّاس
أفسدتِ إنسانا على أهله يا مُفسدَ الناس على الناس (٣٠)
وقال في الثانية منهما :
أكذّب طرفي عنكِ في كلّ ما أرى وأسمع أذني منكِ ما ليس تسمعُ
ولم أسكن الأرضَ التي تسكنينَها لكي لا يقولوا صابرٌ ليس يجزع
فلا كبِدي تبلى ولا لكِ رحمة ولا عنك إقصار ولا فيكِ مطمع
لقيتُ أموراً فيك لم ألقَ مثلَها وأعظَمُ منها منكِ ما أتوقّع
فلا تسأليني في هواكِ زيادة فأيسرُه يُجزي وأدناه يُقنع(٣١)
وفي كلتيهما – إن لم نقُل في الثانية منهما حسب – لم يخرج كذلك عن روح لغة العاشق المدنف المبالغ في مشاعر التدلُّه والهيام، مع بساطة واضحة في التراكيب اللغوية تقرّبها من لغة الناس العاديّة، وهي لغة شاعت وتسيّدت الكثير من أشعار شعراء تلك المرحلة التاريخية (العصر العباسي الأول)، ومنها أشعار أبي العتاهية وبشّار بن برد وأبي نواس وغيرهم، التي اقتربت من "الشعبيّة" بعد أن انتهت أو كادت لغة شعراء ما قبل الإسلام ذات

المفردات والعبارات البدوية البالغة الخصوصية.

الخاتمة

وهكذا؛ يتّضح أمامنا بجلاء الوضع الحياتي الخاص لهذا الشاعر اللص الفاتك أصلا، والتحوّلات التي واجهها هذا الوضع الإنساني : من اللصوصية في أعنف أساليبها (أي المقترنة بالفتك) الذي هو أبشع أساليب القتل لكونه يحصل بلا مشاورة ومن دون إعطاء أية فرصة للضحية، مع التأبّد في القفار والصحارى، إلى العيش الآمن المستقر في كنف الأمراء والولاة وانتزاع عطاياهم السخيّة، فالوقوع في شباك الحب وعشق الجواري والقيان الجميلات، وما عكسته هذه التحوّلات الحياتية بدورها على لغة الشاعر في اللص واللص في الشاعر العاشق، من عبارات وتراكيب لغوية اتسمت بالمكر والذكاء من جانب، وباللين والبساطة الشديدة واعتماد المفردات (العصرية) الحضَريّة ابنة مجالس الأنس واللهو غير البريء والحياة العابثة من جانب آخر، حتى ليمكننا القول باطمئنان تام : إن الشاعر بكر بن النطّاح هذا ليُعدُّ مثالاً فريداً متقدّماً لأحوال شاعر وتحوّلاته، ناسب في حضوره الحياتي والشعري مرحلة التحوّلات في أحوال أبناء الدولة العربية الإسلامية منذ أواسط العصر الأموي من عصور الأدب والسياسة، وصولاً إلى العصر العباسي في أوج تطوّره وانتعاشه السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وما عكسه ذلك التطور كله على الأدب والأدباء والشعر والشعراء.

ويمكن القول كذلك إن في دراسة لغة هذا الشاعر، بعد الجهد المشكور للأستاذين جامعَيْ أشعاره، من دون تعمُّل وتعمُّق حتى، كانت كافية – بحد ذاتها – لإماطة ما يمكن من أغطية على شاعر مهم لم يأخذ مكانته الحقيقية في مسيرة الأدب العربي الطويلة، وقد ضاع الكثير من شعره وضيّعه – أو كاد – شاعراً متميّزاً له لغته الخاصة ومفرداته وتراكيبه الخاصة، لا بل له تفرده في استعمال عدد من المفردات اللغوية العصرية التي لم يسبقه إلى استعمالها أحد، ولم يتلوه في استعمالها أحد، وإن بدت مفردات خالية من الشاعرية، لكنه منحها شعريتها وشاعريتها المدهشة بالسبق إلى استعمالها،

مثلما بيّنا في تضاعيف هذا البحث. وحسبنا هذا إن كان ثمة في بحثنا ما يُحسب له ويمنحه التقدير الذي يستحق بإذن الله وعونه.

المراجع

-الاشتقاق، ابن دريد، تحـ : عبد السلام هرون، القاهرة، ١٩٥٨.
-الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت – ٣٥٦ هـ)، طبعة دار الكتب المصرية.
-طبقات الشعراء، ابن المعتز، القاهرة، ١٩٥٢.
-عشرة شعراء مقلّون، الأستاذ الدكتور حاتم الضامن، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، ١٤٢٢ هـ - ١٩٩٠ م.
-موسوعة اللصوص، أشعار اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملّوحي، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ١٤٢٣ هـ - ١٩٩٢ م.

الهوامش

(١) الأصفهاني : ١٠٦/١٩ .
(٢) ابن دريد ، الاشتقاق: ٣٣٤
(٣) الأصفهاني ، م. ن : ص. ن.
(٤) م. ن : ١١١
(٥) ابن المعتز ، الطبقات : ٢١٨ .
(٦) الأصفهاني، م. ن : ١٠٩وما بعدها.
(٧) عبد المعين الملّوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، مج٢: ٣٩٥.
(٨) م. ن : ٣٩٧ .
(٩) الأصفهاني ، م. ن : ١١٢ .
(١٠) م. ن: ١١٣
(١١) الملّوحي ، م. ن : ٤١٥ وما بعدها.
(١٢) الملّوحي : ٤٢٤ .
(١٣) الملّوحي : ٤٣١ .

(١٤) الضامن، عشرة شعراء مقلّون : ٢٥٦ . (وجعلها الملّوحي ضمن مستدركاته).
(١٥) الضامن، م. ن : ٢٦٨ . (وجعلها الملّوحي ضمن مستدركاته).
(١٦) الملوّحي : ٤٣١ . وذكر في هامشه أن البيت الثاني يشير إلى ما ورد في تفسير الآية الكريمة : (قل للمخلَّفين من الأعراب ستُدعَون إلى قوم أولي بأس شديد...) من سورة الفتح التي ذكر بعض المفسّرين أن القوم هم بنو حنيفة أصحاب اليمامة.
(١٧) الملّوحي : ٤١٢ . الضامن : ٢٤٨ .
(١٨) الملّوحي : ٤١٣ . الضامن : ٢٤٩.
(١٩) الملّوحي : ٤١٩ . الضامن : ٢٥٤ .
(٢٠) الملوحي : ٤٢١ . الضامن : ٢٥٧ .
(٢١) الملوّحي : ٤٢٣ . الضامن : ٢٦٢ .
(٢٢) الملوحي : ٤٢٧ . الضامن: ٢٦٦ . (وقد أجرى المحققان تعديلاً متشابهاً على البيت الثاني إذ وجداه في طبقات ابن المعتز مضطربا).
(*) سورة الحج / ٢٧ و ٢٨.
(٢٣) الملوحي : ٤٣٠ . الضامن: ٢٧٢.
(٢٤) ينظر تخريج الأبيات ، الملوحي : ٤٣٠، الضامن : ٢٧١ وما بعدها.
(٢٥) الملوحي : ٤١١. الضامن : ٢٤٨.
(٢٦) الملوحي : ٤٢٠. الضامن : ٢٥٦. وأورد (مجانتي) بدلاً من (مجالسي).
(٢٧) الملوحي : ٤٢٢. الضامن : ٢٥٧.
(٢٨) الملوحي : ٤٢٥. الضامن : ٢٦١.
(٢٩) الملوحي : ٤٣٥. الضامن : ٢٧٧.
(٣٠) الضامن : ٢٦٤.
(٣١) الضامن : ٢٦٦.